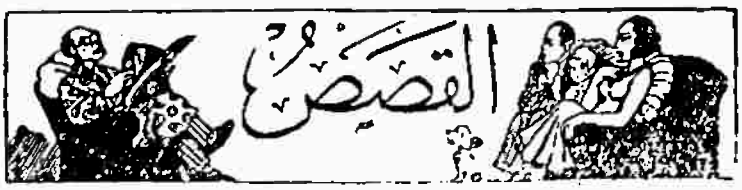

قصة من فلسطين

خطيئـــــة

للأستاذ علي محمود مرطاوي

فتحت سلوى عينها على الحياة على مدينة نيويورك ، تلك المدينة التي تقوم فيها ناطحات السحاب ، والبيوتات المالية التي تعبث بمقدرات العالم ، وتسير التاريخ ، وترسم له الاتجاه .

وكان والدها قد رحل إلى أمريكا قبل ذلك التاريخ ، وواتته الفرصة فجمع مالا وفيرا ، وعاد إلى الوطن يفتش عن عروس في فلسطين أرادها أن تكون أسرته ، فبنى بابنة عمه وعاد بها إلى أمريكا .

ولكن الحنين إلى الوطن ، والشوق إلى الأهل ومراتع الصبا ، جعل حياة الزوجة جحيما لا يطاق ، فما زالت به حتى قنع بالعودة بعد تصفية أعماله .

والحرية في مدينة نيويورك تختلف عنها في الشرق اختلافا عظيما ، ذلك أن الفتاة والفتى يلعبان طفلين معا ، ويتعلمان شابين ولا يجدان في مسالك الحياة ما يغير ذلك . والتعليم في معانيه يحمل العقل مسئولية الخطأ في الحياة ، وينير أمام الضمير الطريق ، والفتى والفتاة في الخامسة عشرة يجتازان أشق مرحلة من مراحل العيش ، تلك المرحلة التي يعزف فيها الشيطان على قيثارة الشباب ألحان الجنون ، وتصرخ الطبيعة في الجسد النعش بصوتها الذي يزلزل العقل ويدمر الاحساس ، ويوقد السعير في الضلوع . ولذلك كان من أبسط واجبات الوالدين العناية بأبنائهم وبناتهم في هذه السن المبكرة ، والاخذ بيدهم لاجتياز هذه الرحلة الوحشة

عادت سلوى وهي في الخامسة عشرة من عمرها مع أمها وأبيها إلى الوطن الذي لا تعرف عنه شيئا ، وإلى الأهل الذين تختلف طباعهم وسلوكهم وعاداتهم عما ألفتته في نيويورك ، فرأت نفسها غريبة لا تفهم الناس ولا يفهمونها . تبصر النساء يسرن وقد وضعن على وجوههن أغطية شفافة سوداء فلا تفهم معنى المحافظة على الأخلاق عن طريق الثياب بدلا من غرسها في صميم الروح .

ومات والدها بعد ستين من رجوعها إلى فلسطين ، ولم يترك غيرها فكانت الوارثة الوحيدة لثروة كبيرة أنفق الأب زهرة عمره الطويل في جمعها .

وكانت والدتها صغيرة السن ، جميلة الملامح ، مر في حياتها شاب بعد وفاة زوجها لوح لها بالحب فخدعها فانقادت اليه واسلمته قلبها وجسدها وحياتها وتزوجا .

وعاشت سلوى في المنزل الجديد ، فكانت منقبضة الأسارير لم يرق في عينها زواج أمها ، لأن ذكريات أبيها كانت عميقة في روحها ، وكان يؤلمها أن ترى إنسانا آخر مع أمها تلك التي كانت قبل عهد قريب أحب الناس إلى أبيها .

وشبع الزوج وارتوت الحيوانية المتغلغلة فيه من جمال الأم ، وراح لعاب نفسه المجرمة يسيل كلما رأى سلوى وهي كالوردة العابقة تملأ المنزل سحرا وفتنة وجمالا وسعادة . وراح يتودد إليها ويكثر من المزاح معها ، ومن العناية بها ، ويطيل في مداعبتها فادركت الأم ذلك ، وشعرت بكيانها ينهار وبعزيمتها تخور ، وبقلبها يتحطم ، وهي ترى ذلك الذي اسلمته قلبها ، ووثقت بشرفه ومروءته ورجولته ، يطارد ابنتها ، فثار غضبها ، وجرحت كرامتها .

وأرسلت سلوى إلى جدتها في مدينة أخرى . وكانت تلك الجدة في الخمسين من عمرها ، مات زوجها وجميع أبنائها ولم يبق غير ولد واحد في العشرين من عمره ، لا يعمل عملا ، وانما يعيش مع أمه على ما كانت ترسله أخته أم سلوى لهما من نقود .

ووجدت سلوى عند جدتها لونا جديدا من الحياة الطليقة لم تألفه عند أمها التي كانت تقيد حريتها ، فأحبت العيش عندها . إن خالها علا قرائها ؛ يسيران معا بين الحقول الخضراء والبساتين المثمرة ، ويتسلقان الجبال ، ويهبطان الأودية في نزهتهما اليومية ، ويلعبان معا ، ويأكلان معا ، وينامان معا في غرفة

واحدة . . والجدة ترى ذلك فلا يداخلها سوء ، ولا يمر بخاطرها مكروه ، ولا تجد فى ذلك ضيرا ! أليس خالها ؟ أوليست محرمة عليه وهى ابنة أخته ؟

ولكن الطبيعة النائمة فى جسديهما قد استيقظت ، والجسدان الجائعان — وقد أهاج فيهما الاحساس بالجوع الطعام الغريب الشهى — قد تحررا من قيود الحياء بعد أن كان الاحتشام يحول بينهما وبين ذلك الاحساس المدمر العنيف . ولكن اللقاء الدائم والخلوة المستمرة ، والتفكير المتواصل، قد استحال إلى حب جارف متبادل بين القلبين ؛ فمات العقل فى ساعة من ساعات الشهوة العنيفة الطاغية من حنين الجسد إلى الجسد ، فزلا، وقادهما الشيطان إلى الغواية والخطيئة ، وراحا يأكلان من الثمرة المحرمة ، والعجوز على مقربة منهما منصرفة إلى صلاتها وأورادها وعبادتها ، تدعو لهما وتبارك حياتهما ، والنار حولها قد التهمت الأخضر واليابس وقد أحرقت أعز ما عند حفيدتها من طهر ، ودمرت القوانين السماوية يد الشيطان الرجيم ، وعلى أصوات آى الذكر الحكيم ، تنبعث صلاة عميقة من روح العجوز إلى الله .

ومرت الأيام ، فشعرت الفتاة بشىء يتحرك فى احشائها ، ففاتحت خالها الشاب الأرعن فلم يفهم شيئا ولم يعنها على فهم ما غمض عليها ، ولعله لا يعرف ... واستمر دولاب الزمن فى دورانه فكبر الجنين وظهرت أعراض الحمل ... وتنبهت العجوز بعد فوات الوقت ، ولم يكن بد من ظهور الفضيحة ، فحملت الفتاة إلى المستشفى وهناك وضعت طفلة

واتصل بعلم الأم ذلك الأثم ، فجن جنونها ، وخولط عقلها ، فلطمت وجهها ، وهى فى ارسال كريمتها إلى جدتها كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولكن بصيصا من الايمان العميق بالله وبالقضاء والقدر حالا بينها وبين الموت . فأخذت طريقها إلى أمها واخيها وبودها أن تسحقهما سحقا . لقد انقلبت إلى وحش كاسر تريد الثأر لكرامة ابنها ! ولكن ممن ا من أخيها — نعم من أعز انسان لديها ! تريد أن تثأر لكرامتها الجريحة ، وللعار الذى لم يسبق له مثيل ، والذى سيكون نصيب ابنتها البريئة الطاهرة فى الحياه . لكنها لم تستطع أن تفعل شيئا أكثر من وضع الطفلة فى ملجأ والهرب بابنتها إلى منزلها لتكون تحت جناحيها .

ومرت الأيام وأحست الفتاة بفداحة الأثم الذى اقترفته فكرهت الحياة ونقمت على البشر ، واظلمت الدنيا فى عينيها فما عادت ترى غير أطياف سود من البؤس والشقاء وما عادت تشعر الا بتلك الجراح العميقة فى قلبها تلك الجراح التى لا تميت ولكنها لا تبرأ منها على حد تعبير اللورد بايرون فى ملحمته « الفارس هارولد »

ونتقدم لخطبتها شاب متعلم رأى أطياف سعادته تنعكس فى عينيها الساحرتين ، فأحبها حبا مبرحاً عنيفاً — ولم يكن يعرف شيئا عن أحزانها ومتاعب روحها . وراح يمنى النفس بها ، وبالسعادة معها . . كان ذلك ما يضطرم به قلب الشاب العاشق الذى كان يزور أمها ، ولكن الفتاة وهى ترى حبه العميق باديا فى عنايته بها ، وفى سؤاله عنها . وفى نظراته لها ، وفى رغبته فيها — كانت تعيش فى عالم بعيد، لم تحس بوجوده فى قلبها ، الذى حطمته الآلام وأصبح لا يتسع للسعادة ولا يقوى عليها

وتقدم يخطبها ، وكان ذلك ما عنته الأم فرضيت به ولكن الفتاة لاذت بصمت عميق .

لقد مات قلبها ولم تكن راغبة فى أن تجر إلى الشقاء معها شابا أحبها بأقوى ما فى القلوب من حس وشعور ، انها لن تحبه . راحت الأم المسكينة تضع المستحيل لتردها الى المنطق ، ولتزين لها الحياة الجديدة ، بعد أن تلاشى الماضى بكل ما فيه من دموع وذكريات .

كانت الفتاة تحب أمها حباً عميقاً فسكتت أيضا وحسبت أمها أن ذلك إيذانا بالقبول وزفت البشرى الى الشاب ففرح فرحا شديدا وتلقت سلوى خطيبها فى بشر مصطنع وهو يضع خاتم الخطبة فى أصبعها ، ويضع قبلة حملها كل ما فى قلبه من عبادة وحب شديد على يدها البضة الناصعة البياض . وفرحت الأم فرحا شديدا وتمت مراسيم الخطبة فى حفل رائع بهيج . وعين يوم الزفاف . ونامت العروس والغد ينتظرها والشاب العاشق يحلم بالسعادة فى ذلك الغد بين ذراعيها .

وفتحت الأم غرفة العروس، بعد أن استبطأت نهوضها من النوم ، فوجدتها جثة هامدة مضرجة بدمائها وهى فى ملابس العرس . لقد قطعت إحدى الشرايين فى جسمها لتستريح من آلام الحياة التى حملها عن روحها الموت .

المسيب — العراق

على محمد سرطاوى